أثر الحضارة العربية

في الاندلس وصقلية وما اليهما

بقلم محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ووزير معارف سوريا سابقاً

— ٢ —

كان اختلاط العرب بالاسبانيين والبرتغاليين والكتلانيين والفرنسيس والبشكنس Les Basques اختلاط محارب مع محارب يعرفونهم لاول الامر بغاراتهم يأخذ بعضهم من بعض اسرى فلما طال الزمن رأت تلك الامم المضعوفة انهُ لا مناص لها من ان تتعلم في مدارس الامة المرهوبة . وهكذا كان فان كثير من نبهاء الافرنج رحلوا الى الاندلس يأخذون عن علمائها العلم ويقتبسون من انوارهم ومنهم او من مشهوريهم البابا سلفستر الثاني (جربرت) وقد درس الرياضيات والفلك عند علماء العرب في اشبيلية وقرطبة فكان اعظم علماء عصره في قومه ولما صعد الكرسي البابوي سنة (٩٩٩ م) كان اول البابوات الذين وجهوا وجهتهم الى توحيد قوى الغرب لمقاومة المسلمين في استيلائهم في الشرق والغرب ومثله كثيرون ممن اخذوا عن العرب وكتبت لهم مكانة بما نقلوه عنهم بين قومهم

***

وذكروا ان شانجه امير ليون كان يستشير اطباء العرب . واطباء العرب من الاندلسيين هم الذين نقلوا الطب الى فرنسا . في زمن انشأ فيه الاندلسيون في كل ناحية من بلادهم المدارس وخزائن الكتب والجامعات العلمية في العواصم وغيرها كانت مواطن العلم في الغرب زمناً طويلاً ومنها اليوم مضمنة عاصمة العلم في اسبانيا وقطربة عاصمة العلم في البرتقال على نحو ما نشهد بعهدنا مدينة ليبسيك في المانيا واكسفورد في انكلترا . وزالت الامية في الاندلس بما انشأ الملوك من المدارس وكان في قرطبة عشرات من الكتاتيب للفقراء واصبح الرجال والنساء على السواء يكتبون ويقرأون بل ربما كان من ابناء الفلاحين من ينثرون وينظمون

واخذ الاسبان عن العرب في الاندلس وصقلية معنى الشعر وبعض اوزانه وموضوعاته ولم يكن

الشعر الغربي الى عهد العرب شاعر افرنجي يرفع الرأس ما خلا اغاني هي اشبه بشعر العامة منها بشعر الخاصة . واحتذى الاسبانيون حذو العرب في القصائد التاريخية والموالية ونمت رياض الادب الغنائي فتفتحت عندهم الاشتغال بالادب العربي بين اساقفة النصارى المستعربين وراحوا يترضون الشعر بلغة عربية عالية . وكثير من قصائد الذين كانوا يجوبون في الولايات (تروبادور وتروفير)(١) هي قصائد عربية وافتبس دانتي شاعر الطليان كثيراً من افكار العرب في روايته المهزلة الالهية وخصوصاً من أبي العلاء المعري. وتأثر الادب الروائي والشعر الاسباني بالاسلوب العربي واخذوا عن العرب اوزان التفاعيل الثمان والاغاني الاسبانية القديمة منتحلة من دواوين شعراء العرب الى غير ذلك ، ثم ان اسبانيا تأثرت ايضاً بالموسيقى العربية وما زالت الموسيقى الاسبانية في اسبانيا وجميع البلاد التي استولت عليها في سالف الدهر ولا سيما الارجنتين والبرازيل هي الموسيقى العربية بل سرت الموسيقى العربية الى البيع الاسبانية وما كانت ألحانها الا عربية في القرن الثالث عشر للميلاد وكذلك يقال في الرقص فان الرقص الاسباني الى اليوم هو بالرقص العربي اشبه وبايقاعه وتلاحينه اعلق . وهكذا يقال في كثير من ادوات الموسيقى الاسبانية فانها او اكثرها مما اقتبسوه عن العرب وهؤلاء جاؤا به من الحجاز وهذه نقلتها عن فارس وعن الروم

ويقول الاسباني اليوم انك اذا أنصت للغناء في شوارع قرطبة وإشبيلية وغرناطة لعهدنا توقن انهُ غناء عربي واذا طعمت في دار أندلسية تجد الطعام طعاماً مغربيًّا واذا شهدت من يجلسون الى خُوان في متنهى تحصي لهم عادات أهلية خاصة . وان جميع حياة الاندلس تذكر بالامة العربية القديمة ، وان الحدائق والحقول تسقى من تُرع وقني عربية وان الموسيقى عربية ، وهناك صناعات صغيرة وتجار صغار وقوافل من الحمير والآن تمتاز الازقة على ما نحو ما هي في البلاد العربية واذا استمعت من بعد الى تلفظ اهل تلك المدن الاندلسية يتكلمون بالاسبانية تحسبهم يتكلمون بالعربية لا بالاسبانية . اما هندستهم وشوارعهم واحياؤهم وأقنية بيوتهم فهي عربية صرفة على مثال ما هو من نوعها في دمشق وتونس

***

يقول لوبون ان تأثير العرب في الغرب كان عظيماً واليهم يرجع الفضل في حضارة اوربا ولم يكن نفوذهم في الغرب اقل مما كان في الشرق ولكنه كان يختلف عنه . أثروا في بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع اما في الغرب فلم يؤثروا في الدين وكان تأثيرهم في الفنون واللغة ضعيفاً وعظم تأثيرهم بتعاليمهم في العلم والآداب والاخلاق . ولا يتأتى لمرء معرفة التأثير الذي أثره العرب في الغرب الا اذا مثل

(١) (Les Troubadours & les Trouvères) التروبادور شعراء ينظمون باللغة الفرنسية القديمة كانوا بعد القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بمنزلة وال كانوا بما بين ذلك من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر يختلفون الى الملوك والنظراء ينشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما اقاموا في قصورهم مدة

لعينيه حالة اوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة . واذا رجعنا الى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد يوم كانت المدنية الاسلامية في اسبانيا زاهرة فاهرة نرى المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن مجموعة ابراج يسكنها سادة لعسف متوحشين يفاخرون بانهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وكانت الطبقة العالية المستنيرة في النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت بالتنكب في اديارهم بنسخ كتب القدماء ليتاجروا ورق البردي لنسخ كتب العبادة

قال وطال عهد الجهالة في اوربا وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ولم يبد فيها بعض ميل للعلم الاّ في القرن الحادي عشر وبعبارة اصح في القرن الثاني عشر ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلاً بالحاجة الى نفوذ كفن الجهل الثقيل الذي كان الناس يتلوون تحته طرقوا ابواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليه لانهم وحدهم كانوا سادة العلم في ذلك العهد . ولم يدخل العلم أوربا في الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع بل دخل بواسطة الاندلس وصقلية وايطاليا وفي سنة ١١٣٠ أنشئت مدرسة للترجمة في طليطلة بعناية رئيس الاساقفة واخذت تنقل الى اللاتينية اشهر مؤلفات العرب وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالماً جديداً ولم تفتر الحركة في هذه السبيل خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم تنقل الى اللاتينية كتب الرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقلت اليها كتب اليونان امثال جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخيدس وبطليموس وهي الكتب التي كان المسلمون نقلوها الى لسانهم

اصبحت اللغة العربية منذ النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن وحافظت على مرتبتها الاولى بين سائر اللغات الى آخر القرن الحادي عشر وكان يقضي على كل من يحب الاطلاع من اهل القرن الحادي عشر على آراء عصره ان يتعلم اللغة العربية ولذلك قالوا ان كثيراً من زعماء النهضة كروجر باكون وغيره كانوا يعرفون لغتنا . وكان ملوك الاندلس يفاوضون جيرانهم باللغة العربية وهؤلاء يجيبونهم بها على لسان تراجم لهم يجيدون العربية ، واكثر سفراء الافرنج عند ملوك الاندلس يقضي عليهم ان يلموا ولو الماماً خفيفاً بلغة العرب

***

وبعد ان اخذ الغرب العلم عن كتب العرب وفلدهم في مخابرهم ومعاملهم وجامعاتهم ومدارسهم وقرئت كتبهم وعلومهم في جامعات الغرب مدة ستمائة سنة ودام ذلك الى القرن الثامن عشر لا نستغرب ان تدخل في جميع اللغات الغربية الالفاظ العلمية العربية ولا سيما في الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية وفي كل لغة من هذه اللغات اللاتينية بضعة الوف من الالفاظ العربية اخذوها مصطرين عن العرب لا لان هؤلاء احتلوا بلادهم او اماكن منها بل لان العلم العربي كان وحده هو المتفوق في العالم وكان العرب دعامته ورعاته خلال بضعة قرون

نعم لم يجد العلم ملجأ امينا له غير العرب في تلك القرون وهذه فرنسا لم تنهض من كبوتها بعد غارات البرابرة الا بعد ثمانية قرون وذلك بفضل العرب ومن علماء فرنسا من يعز عليهم الاعتراف بهذه الحقيقة وبينما كانت المدنية الاسلامية زاهرة كانت فرنسا في احط دركات التأخر ولم ينتشر الطب والصيدلة في ربوعها الا بمساعي اطباء اليهود الذين اعتصموا باسبانيا ثم باقليم لانكدوك بعد القرن الحادي عشر وفي لانكدوك انشأوا عدة مدارس ومنها مدرسة مونبليه ، واضطرت بعض الامم الغربية ان تحمل بعض ابنائها على تعليم اللغة العربية وأسست جنوة مدرستها لتعلم العربية سنة (١٢٠٧م) ورأى ملوك قشتالة بعد وقعة العقاب التي كتب فيها النصر للاسبان على العرب ان لا يقاطعوا الماضي القديم وانهم في حاجة الى ان يتعلموا من معلميهم القدماء من العرب فحاول الفونس العاشر ان يعمل لاسبانيا النصرانية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ من احسن ما في الحضارتين الاسلامية والنصرانية ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة (١٢٥٤ م) في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية وعربية واستدعى الملك الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية يجمع فيها بين الاوضاع العربية وغيرها . وقضى مجمع فينا الديني سنة (١٣١٢ م) ان تؤسس في باريس واكسفورد وبولون وصلمنقة دروس عربية لتنصير المسلمين ودروس عبرانية لتنصير اليهود . وعنيت ايطاليا منذ ذلك العهد عناية خاصة بالعربية ترى تعلمها من الضروريات لكل تجار المدن البحرية وكان من ذلك ان احتكرت البندقية تجارة اوربا مع الشرق واستأثرت بتجارة آسيا الصغرى وتمت لبندقية وبيزا وجنوة وطقانة معرفة الشعوب الاسلامية اكثر من عامة اهل اوربا وكان من العادة الجارية في طبقة التجار من ابناء البندقية ان يتكلموا بالتركية والعربية ويأخذوا انفسهم ببعض العادات والالسنة بالمصطلحات الشرقية

وملك البزيون والجنويون والبنادقة املاكا مهمة في الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وفي غيرها فامتزجوا بأهل البلاد وتأخرت الممالك الاخرى في تلقف العربية الى القرن السابع عشر والثامن عشر ومنها هولندا والمانيا وفرنسا وانكلترا والنمسا والبرتغال وروسيا وبولونيا الخ

***

اصبح البحر الرومي بما فتحه العرب من شواطئه بحراً عربيًّا اوائل القرن الثالث وذلك لان شواطىء افريقية واسبانيا وكثير من الجزر كجزائر متورقة وميورقة ويابسة المعروفة بجزائر البالير او الشرقية وغيرها دخلت في حكمهم ولما فتحوا في سنة (٢١٢ هـ) جزيرة صقلية وكانوا غزوها غير مرة منذ اخذوا يسافرون على سفنهم على عهد الخليفة الثالث واتبعوها بجزيرة سردانية وغيرها تراجعت سفن الروم الى الموانىء القريبة من بلادهم واشتدت غزوات العرب الى بلاد انكبردة او لمبارديا وقلورية اي كالابريا من جنوبي ايطاليا واستولوا على اكثر اصقاعها الجنوبية نحو تسع وعشرين سنة . ومن البلاد التي احتلوها احتلالا موقتا او غزوها وتخلوا عنها ربو والبندقية وطارانت وسامرن واسالفي

ونابل ورومية وجنوة والغالب ان العرب في الولايات التي زلوها من جنوبي ايطاليا عززوا بصناعاتهم وعلمهم ولم يخلفوا أثراً من آثارهم كالنقود والرنوك والمصانع والجوامع على ما حقق ذلك العلامة دانينو

اما في جزيرة صقلية فان العرب طالت فيها اقامتهم اذ من سنة ٨٤٨م واثروا فيها انواع التأثير فتركوا لاهلها اولاً عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة واكتفوا منها بجباية قليلة كان مقدارها اقل مما كان يستوفيه اليونان منهم واعفوا منها النساء والاولاد والرهبان وحافظوا على جميع الكنائس الموجودة ولم يسمحوا بانشاء غيرها على خلاف ماجروا عليه في الاندلس وعمدوا الى الزراعة والصنائع فاحيوها وادخلوا اصنافاً من الزرع لم تعرفها الجزيرة ومنها القطن وقصب السكر والزيتون والبردي والكتان والمران واقاموا المجاري التي لم تبرح ماثلة للعيان وعلموا الناس عمل القني ذات الانابيب المعقفة (السيفونات) وكانت قبلهم غير معروفة

وانشأ العرب في صقلية مصانع لصنع الورق ومنها انتشرت الوراقة في ايطاليا. وعدنوا معادن الجزيرة وعلموا اهلها صنع الحرير. والغالب ان صناعة صبغ الثياب انتشرت في اوربا من صقلية ومن مصانع الصقليين كانت تصدر الاكسية المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة والمنقوشة والجلد المدبوغ والحلى البديع وبالاجمال حمل العرب الى صقلية مظاهر غريبة من فنهم وقناطرهم العالية الجميلة ونقوشهم من المقرنصات وجمال قاشانيهم ذي الميناء والفسيفساء المعمولة من الرخام الملوّن وصورهم الجميلة وبهيج صناعاتهم وما كادت اعلامهم تعلو هذه الجزيرة العظيمة حتى نمت التجارة وكانت قبلهم ضئيلة وانشأوا يقلعون على سفنهم الى الجهات الاربع وكانت لهم حكومة ذات مجد ورقي وكثر المسلمون فيها خلال قرنين حتى اصبحوا نصف سكان الجزيرة

وسار النورمان على سياسة رشيدة لما استولوا على صقلية وقضوا على سلطان العرب فيها فابقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم واستعملوا منهم كثيرين في قصورهم وحروبهم فكان منهم القواد والعظماء والعلماء في خدمة الدولة الجديدة وبقيت لغتهم رسمية في الجزيرة مدة حكم النورمان وتعلم ملوكها العربية ومنهم من برزوا فيها ونظموا فيها الاشعار وطربوا لادبها وهكذا تخلق النورمان باخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة في باب التسامح السياسي وعدم التحزب الديني في القرون الوسطى حتى انهم البابوات امراء النورمان بانهم دانوا بالاسلام وما زالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة وغيرها

كان روجر اول ملك نورماني استخلص صقلية من العرب هو واضع اساس هذا التسامح مع المسلمين وهو الذي استقدم اليه من بر العدوة — وبر العدوة ما سامت الاندلس وصقلية من شمالي افريقية ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى — الشريف الادريسي وبالغ في اكرامه وطلب اليه ان يبقى في صقلية وان يحقق له اخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب وندب لذلك اناساً اكفاء وجهزهم روجر الى اقاليم الشرق والغرب والجنوب والشمال وسيّر منهم قوماً مصورين ليصوروا ما شاهدوه عياناً فكان اذا حضر احدهم بشكل أثبته الشريف ادريسي حتى تكامل له ما

اراد وجعله مصنفاً سماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وهو من أجل كتب الجغرافيا التي بقيت من تآليف العرب . وعمل الادريسي لروجر كرة أرضية من الفضة كانت من اجل ما ابتدعته قريحة عربية رسم فيها العالم ببحره وبره وجباله وسهوله وانهاره وبحيراته ومدنه وممالكه

كان تأثير العرب في صقلية بعلمهم اكثر من تأثيرهم بتبايهم ومصانعهم وكان الروح فيها عباسيًّا ثم فاطميًّا لان بني الاغلب امراء افريقية اي تونس للعباسيين تولوا ذلك منها اولاً ثم جاء الفاطميون فخضعت لسلطانهم اما في الاندلس فكان الروح امويًّا بحتاً لاسلطان فيها لغير العرب. يقول العلامة آماري المستشرق الصقلي ان صقلية مدينة للعرب وايطاليا مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطني بمعنى انه منذ قلد البلاط الصقلي البلاط الملكي الاسلامي بدأت العناية بقرض الشعر تلك العناية التي كانت السبب في نهوض الشعر الايطالي. وقال رينالدي لم يساعد العرب فقط على انهاض الشعر الصقلي والايطالي بل انهم امدوا القصص الايطالية بشكلها ومادتها . وفي بلرم التي اتخذها العرب عاصمة صقلية وعمرت عمراناً غريباً، انشأ العرب اول مدرسة للطب وما عهد مثلها في جميع اوربا فقد انشئت مدارس الطب في الغرب بعد مدرسة صقلية العربية باعوام ومنها انتشر الطب في بلاد ايطاليا وساعد ان البابوات كانوا رحلوا الى افنيون من ارض فرنسا فخلا الجو للعلم العربي ثم تفرغ العرب بعد ذهاب سلطانهم من الجزيرة الى العلم والتجارة . فكانوا نحو قرنين آخرين بعد خروج صقلية من ايديهم رجال المال والاعمال فيها بل كانوا ساداتها بالفعل . ومن كان له العلم والمال لا ينقصه شيء من القوى والاعمال

اخرجت هذه الجزيرة في العهد العربي عظماء من الرجال في العلم والادب وكان عددهم بالقياس الى من اخرجت الاندلس قليلاً وقلّ فيهم النوابغ في علوم العقل على نحو ما كان في الاندلس ولكن عمل صقلية في التمدين لم ينقص كثيراً عن مهمة الاندلس فاذا كانت هذه الجزيرة غنت غرب اوربا بضعة قرون عدديتها فان صقلية كانت مدة رسالتها ثلاثة قرون ترسل اشعة المدنية العربية الى اواسط اوربا . ولعلّ ما دعا صقلية الى ان تكون دون الاندلس في هذا المضمار كون العرب فيها قلائل واكثر من نزلوها من البربر بخلاف الاندلس التي كان فيها العرب كثرة غامرة هاجروا اليها وكانت لهم مستقرًّا ومقاماً

وقصارى القول ان العرب في الاندلس وصقلية بما كان لعنصرهم من المرونة تتقبل كل نافع بقبول حسن كتب لهم الابداع في مبانيهم ومصانعهم وشعرهم وأدبهم وعلمهم وعملهم كأنّ هواء الغرب علمهم ان يغيروا ما حملوا معهم من مدنية الشرق بما يلائم تلك البيئة الجديدة وجبروا من دون اكراه ما نقلوه الى اهل البلاد فطبعوهم بطابعهم وصاغوهم الصياغة التي لا تنافي تعاليمهم ونظمهم فقرّبوهم من مناحيهم ومنازعهم ووقفوهم على سر حضارتهم وتفوقهم . وسرى النور من ارض احتلوها الى ارض بعيدة عنهم ومن شعوب تمثلوا فيهم بعض الشيء الى شعوب ما وسعهم الاّ ان تجاريهم فيما لا يخرجهم عن تقاليدهم وتعاليمهم والاحتفاظ بمقوماتهم من جنس ولغة